سِرّ البُرتقال

قصة بقلم اديب نحوي

لبرتقال فلسطين يا اولاد . سر . لكنه لا ينفتح لكائن من كان . ولا ينفتح الا بعد جيلين من تأسيسه ، فهذا شرط . لا ينفتح الا للولد الذي زرع جده الشجرة. هذا اذا بقي ابوه هناك ليرعاها عبر السنين الطويلة وهي تكبر. بعد ذلك ، يأتي الحفيد ، في الجيل الثالث ، ليقطف الثمرة . فاذا اثبت انه شجاع مثلما كان جده وابوه ، ولا يهاب الموت منذ ان كان ولدا صغيرا ، انفتح له سر البرتقال . والا يظل السر مغلقا امامه ، لانه لا ينفتح للاولاد الجبناء .

***

نعم . يا اولاد .

لا بد انه قد حدث ، والله وحده اعلم بما حدث من عشرين سنة . لكن الذي سمعناه ، سمعناه ممن كانوا هناك . فلا بد انه قد وقع بالفعل . لا بد ان اهل تلك القرية النائمة في ظل التل الكبير المطل على سهل بيسان، كانوا قد استفاقوا في صباح ذلك اليوم الخريفي البارد، مبكرين ، كعادتهم كل سنة ، ليفرسوا اشتال البرتقال في مئات الحفر الصغيرة التي كانوا قد فتحوها بمعاولهم في ارض التل طيلة شهرين من الجهد المضني . ذلك موسم خالد في السنة لا يتبدل اوانه . تنتظر فيه قطعة جديدة من الارض ان تحتضن في ترابها الابوي الرحيم ، اشتال البرتقال الصغيرة لتغذيها من قلبها طيلة ما يسقيها الله من المطر كل فصل الشتاء ، لتنمو في الربيع وقد ابتدأت سنتها الاولى من الحياة ، باوراق جديدة مليئة بنسغ امها الاخضر البديع ، كما تمتلىء خدود الاطفال الاصحاء بلون الورد الجوري الاحمر .

نعم . لا بد انه قد حدث ، والله وحده اعلم بما حدث : ان اهل تلك القرية كانوا قد صعدوا الى التل في ظل ذلك السلام الرباني العميق الذي يظل يعانق ، بشوق المحبين ، سكون الفجر في سهل بيسان العريض ، ليزرعوا هناك ، اشتال البرتقال الصغيرة . فاذا بازيز الرصاص يدوي فجأة . ان مئة مدفع رشاش واكثر ، كانت تحدق بالقرية من جميع اطرافها ، وتصب حممها لتحرق الزرع والارض والبشر .

صاح صائح من فوق التل : اليهود .

ذلك اذن ، كان موعد الغدر ، كما هيأه الصهاينة لتلك القرية واهلها .

صاح صائح : لقد اتوا . وتبعثر شمل حاملي اشتال البرتقال من فوق التل ، هابطين الى بيوتهم في القرية ليتزودوا بما عندهم من سلاح . الا عمر عكاوي ابو احمد . وغصن من اشتال البرتقال في يده يغرسه في اول حفرة على الخط . فانه ، وقد نظر ، فرأى شتل البرتقال ، كما انزله بيده الى الحفرة : عاريا . وحيدا . يتيما . واقل لفحة من نسيم الفجر تستطيع ان تسقطه على جنبه اذا تركه ، هكذا ، دون ان يلم حوله تراب امه ، لتمسكه بين ذراعيها الحنونتين ، فلا يسقط بعد ذلك ولو هبت عليه اعتى الرياح . الا عمر عكاوي ، وفي يده شتل البرتقال وقد غرسه في حفرته ، فانه ظل ينظر بحنان ، الى ذلك الشتل الواهن الضعيف الملقى في الحفرة ، دون ان يتحرك من مكانه .

لا بد ان عمر عكاوي كان قد حزن وغضب في الوقت نفسه ، في تلك اللحظة . لعله فكر ، والله اعلم بما خطر له . لكن لعله فكر في تلك اللحظة : كما لو ان ابنه الرضيع خالد ، اصغر اولاده الثلاثة ، كان هو الملقى امامه في تلك الحفرة الصغيرة . الله وحده اعلم بما خطر له . لكن لا بد ان ذلك هو ما خطر بباله . والا لما بقي فوق التل ثابت النظر الى شتل البرتقال في حفرته ، بينما الرصاص ينصب من حوله ، دون ان يتحرك من مكانه . لا بد انه كان يفكر اذن : ماذا لو ان المخاض اتى ام اولاده فجأة ، وهي تشتغل في الحقل ، فولدت له بسرعة ، هناك، احد اولاده ، حيث نزل الولد الى الارض وهو قطعة هشة من اللحم والعظام . فهل يتركه هناك لوحده ، ولو كانت تنصب فوق رأسه حمم براكين الارض كلها ؟ من المؤكد ان عمر عكاوي كان يخاطب نفسه في تلك اللحظة : انه لا بد له ، لو ان مثل هذا الامر حدث له مرة ، وحتى لو كان حينذاك عاريا كما ولدته امه ، من ان يسلخ من جلده بالسكين ، شرائح ليلف بها ابنه الوليد ، وفقط من اجل ان لا يبرد . بل لعله ، رفع صوته حينذاك وهو لا يزال يخاطب نفسه : فكيف اترك شتل البرتقال هذا ، قبل ان الم حوله تراب الارض ، لتمسك به امه ، فلا يميل بعد ذلك ولا يسقط .

واذا بزوجة عمر عكاوي ، أم احمد ، تصعد الى التل عارية الراس وراكضة : تحمل بيمناها بارودتهم العثملية العتيقة . وفي يسراها صرة القشك ، وهي تصيح :

ـ اليوم يومك يا عمر عكاوي .

وزغردت له :

ـ خذ بارودة ابيك ، واضرب .

والقت اليه بالبارودة ، فتلقاها بكفين مفتوحتين ، وبلهفة المشتاق ، وهتف :

ـ لعيونك يا فاطمة بنت يوسف الخليلي ، يا ام اولادي الثلاثة . ولو لم يكن ابوك اشجع من يضرب بالبارودة في كل بيسان وانشأك على شجاعة الرجال ، لما احببتك وتزوجتك .

نعم . لا بد ان ذلك هو الذي حدث . اذ لا بد ، من اجل ان يتأسس سر البرتقال ، وينفتح للحفيد بعد جيلين متعاقبين في العائلة ، ان يكون جده عمر عكاوي قد دافع عن التل ، حيث زرع شتل البرتقال في قلب الارض ، عندما اتى اليهود لاحتلال قريتهم منذ عشرين سنة ، وحتى آخر نقطة من دمه . بدون ذلك ، لا يتأسس السر لبرتقال تلك الشجرة عندما تكبر . كيف يتأسس سر البرتقال ، وينفتح بعد ذلك للحفيد ، دون ان تكون شجرته قد استقت من دم جده ؟ لا يمكن . مستحيل .

نعم . لذلك ينبغي يا اولاد ، ان يكون الجد قد دافع عن التل ببارودته العثملية . وماسورتها عتيقة . والفشك مستبرد . تطق واحدة فقط من كل عشرة ، فتقتل صهيونيا من المهاجرين . والى جانب الجد زوجته ام احمد . وامامها صرة الفشك مفتوحة . تناوله فشكة بعد فشكة . وتصيح : اضرب يا ابن عمي ، اضرب . وانا ازغرد لك . فيضرب ويقول لها وهو فرحان :

ـ هذا هو تفسير المنام الذي رأيته منذ يومين . لم احك لك يا ام احمد . لكني منذ يومين رأيت نفسي في المنام وانا واقف على ابواب القدس ، وبيارقنا تسقط في ايدي اليهود . فحزنت . رفعت وجهي الى الله وقلت له : يا رب ، ينكسون لنا بيارقنا ، فماذا نفعل ؟ فأجابني صوت كأنه الرعد ، ولا بد انه صوت الله وهو غاضب من حزني وحيرتي :

ـ يا فلسطينيون، اذا سقطت اعلامكم، فلا تنهزموا. بل قفوا ودافعوا في كل شبر من فلسطين عن اشجار البرتقال ، فهي بيارق الرب في ارض انبيائه الطاهرة ، وينبغي ان لا تسلموها لليهود .

***

نعم يا اولاد . لان الجد عمر عكاوي ، اذا زرع شجرة البرتقال فوق اعلى التل ، ثم تركها دون ان يدافع عنها ببارودته العثملية ، وحتى آخر طلقة من فشكها المستبرد .. دون ان يلم حولها بكفيه تراب الارض عندما سقط برصاص اليهود وهو يجود بآخر انفاسه ، فلم يغمض عينيه لآخر مرة في الحياة الا والشجرة الصغيرة ثابتة بين احضان امها الارض ، وقد اخذت تستقي من دمه وهو يسيل من جراحه مباشرة الى جذعها الصغير الواهن الضعيف ، يضيع السر . قد تعيش تلك الشجرة حينذاك وتكبر . وتحبل عندما تصبح صبية لكن ببرتقال صالح للاكل ، لا للاسرار . فتلك شجرة ليس لبرتقالها سر . انما نحن نحكي عن الشجرة التي ظل عمر عكاوي يدافع عنها حتى نهاية الفشك كله ، ويلم حولها تراب الارض لتثبت في حفرتها قبل ان يموت . لتشرب من دمه اول غذاء لها منذ ان غرسها في الارض قبل دقيقة . ففي برتقال تلك الشجرة وحدها ، توجد الرائحة التي تفتح السر يا اولاد للحفيد بعد عشرين سنة .

***

بعد ذلك ، ينبغي لام احمد ، ان لا تنزح باولاد عمر عكاوي من القرية . اذ لا بد لاكبر اولاده وهو احمد ، من ان يرعى اخته الشجرة اليتيمة التي مات ابوها وهو يزرعها فوق اعلى التل ويسقيها من دمه . يجب على احمد عكاوي ان يبقى في القرية ليكبر هو واخته الشجرة معا . ليتزوج بعد ان يبلغ سن الرجال . لينجب ولدا يسميه باسم جده : عمر عكاوي الصغير . لان سر البرتقال يا اولاد ، لا ينفتح الا لحفيد الذي اسسه عندما زرع الشجرة . بشرط ان يكون ابوه قد بقي في المكان نفسه ، ليرعاها ويحميها عبر سنين طويلة من السهر والعناية والتعب . والا يضيع السر ، اذ كيف يستمر سر الشجرة اذا امتدت اليها ايدي الصهاينة الغاصبين ، وهي ما زالت صغيرة ، لتطعمها بطعم غريب يفقدها رائحتها الاصيلة . لا يمكن . لذلك ينبغي لاحمد ان يبقى هناك . يكبر وتكبر الشجرة . يتزوج وينجب عمر عكاوي الصغير ، بينما تثمر ، كل سنة ، اغصان الشجرة ، في موسم النزوح التعيس برتقالا لا يأكل منه احد بل تقتني منه كل عائلة في القرية عددا من البرتقالات . قالوا : يشمون منه رائحة امنا فلسطين . لان في عروق شجرته ، دم عمر عكاوي الجد ، الذي ظل يدافع عن التل ولم ينهزم امام اليهود . فكلما قربوه ليشموه ، فكأنهم يعانقون ، بشفاههم ، خدود عمر عكاوي السمراء ، وشواربه المبرومة السود ، عندما ظل الدم المنبثق من فمه يسيل عليها في طريقه الى جذور بنته الشجرة ، ليسقيها منه ما كان يلزمها من غذاء . تدمع عيونهم . فيسأل الاطفال في القرية : لماذا ؟ فيحكي الآباء لابنائهم عن شجرة عمر عكاوي : ان احذروا ان تأكلوا من برتقالها ، لانها شجرة ذات سر . ومن يأكل من برتقالها : تمسخه . شموا برتقال شجرة العكاوي فقط يا اولاد . لا تأكلوا منه . لان اليهود قتلوا لها اباها بينما كان يزرعها في قلب امها ، فاضطروها لان تشرب من دمه .

كذلك ظل احمد عكاوي يحكي لابنه عمر الصغير وهو يكبر ، عن شجرة جده .

***

نعم يا اولاد .

فلا بد لاحمد عكاوي ان يكون ، عندما بلغ ابنه عمر الصغير التاسعة من عمره ، قد علمه : ان لبرتقال فلسطين بالاصل ، سرا ، يا عمر . لكنه لا ينفتح الا للولد الفلسطيني

الشجاع ، عندما يثبت بشجاعته ، أنه لا يفرح الا بالموت على ايدي الصهاينة .

نعم . لا بد لاحمد عكاوي من ان يكون قد علم ابنه كذلك ، جميع حركات السر . وانها في كل مرة ثلاث حركات : تشم البرتقالة يا عمر ، فهذه هي الحركة الاولى . وتنزع ترسها باسنانك ، هكذا . وتهتف : بسر عمتي الشجرة . بنت جدي عمر عكاوي واخت ابي احمد . جدي بدمه سقاها . وابي بعيونه رعاها . وانا اليوم فداها . تهتف هكذا وانت تنزع ترس البرتقالة باسنانك : بسر عمتي الشجرة . فهذه هي الحركة الثانية . وبالحركة الثالثة تلقيها . ومنذ ذلك ، ينفتح لك يا عمر ، سر البرتقال .

***

لكن ينبغي لاحمد عكاوي ، ايضا ، يا اولاد ، ان يكون اشجع رجل في كل وادي بيسان ، مثلما كان ابوه عمر ، لينفتح سر البرتقال لابنه عمر الصغير . فاذا اتى الصهاينة ، ذات يوم من هذه الايام الاخيرة الى قريتهم ، وجروه من بيته بعد ان اشتبهوا بانه من جماعة الفدائيين، وسألوه : اين اخفيت تلك السلة التي شوهدت وانت تحملها مساء الامس من مفرق الطريق العام وانت عائد الى القرية . فينبغي له ان يفكر . ان يقول لهم : لم اكن هناك اطلاقا . فاذا ضربوه وعذبوه . فيجب على احمد عكاوي ان يظل منكرا امام الصهاينة . يجب عليه ان يقول لهم : ما عندي خبر . فاذا سحبوه الى ساحة القرية وربطوه باحدى سياراتهم واخذوا يجرونه فوق الحصى والشوك بعد ان جردوه من ملابسه ، وصار جسمه يدمي من الجروح وجلده انسلخ من ظهره ومن صدره وساقيه ، بينما يركله الصهاينة وهم يركضون وراءه باحذيتهم على وجهه ويكوونه في كل موضع من جسمه باعقاب سجائرهم المشتعلة ، فيجب عليه ان يتحمل كل هذا العذاب دون ان يتكلم . دون ان يقول لهم حرفا واحدا عن مكان سلة البرتقال التي كانت معه ، لانه اذا قال لهم اين يخفي كل مرة ، سلة البرتقال ، فلا بد لهم من ان يعرفوا ان ابنه عمر هو الذي يستلمها منه على ابواب القرية ويخفيها في حفرة بين صخور الوادي على بعد ساعة من المشي عن القرية . لانه اذا حكى لليهود عن مكان السلة : فذهبوا واخذوها من هناك واخرجوا منها البرتقالات التي تملأ نصفها الفوقاني ، ومنذ ذلك يضيع سر البرتقالات التي تملأ نصفها التحتاني .

لذلك ينبغي ان يظل احمد عكاوي صامدا امام تعذيب الصهاينة . ينبغي ، اذا وقف الصهاينة بسيارتهم في ساحة القرية ، بعد ان يئسوا من ان يتكلم بالتعذيب عن مكان السلة . وجروه من ذراعيه الى اعلى التل ، وربطوه بالحبل الى جذع اخته الشجرة . واصطفوا امامه ، وصوبوا بنادقهم اليه ، بينما يهدده ضابطهم بأن يحكي ، والا اطلقوا النار عليه وقتلوه ، ولم يبق بينه وبين الموت سوى لحظة . فيجب على احمد عكاوي ، رغم كل ذلك ، ان لا يحكي . لانه اذا حكى ، يضيع يا اولاد ، سر البرتقال .

***

نعم يا اولاد . لكن السر لا ينفتح الا بعد جيلين . وقد آن الاوان لينفتح لعمر عكاوي الصغير .

لان اباه احمد اذا لم يحك طيلة ساعتين من التعذيب وهي مدة كافية للوصول الى قلب الوادي والعودة من هناك الى القرية ، فلا بد ان عمر الصغير قد عاد الى القرية من الوادي حاملا معه سلة البرتقال ، وتسلل من سفح التل الخلفي ، من حيث لا يراه الصهاينة ، وظل يتسلل حتى وصل الى وراء عمته الشجرة ، فبجذعها العريض واغصانها المنحنية لتعانق الارض ، تظل تخفيه عن عيون الصهاينة وهو يتسلل . فلا بد ، اذا ظل ابوه لا يحكي وهو مربوط بالحبل الى الشجرة منتظرا ان يتلقى بعد لحظة من بنادق الصهاينة عشر رصاصات ، لا بد ان يكون عمر الصغير قد مد يده ، واخرج من نصف السلة التحتاني ، برتقالة . وبأقل من اللحظة ، شمها . وباقل من اقل من اللحظة نزع ترسها باسنانه ، وباقل من ذلك بكثير ، وبمثل لمح البصر ، كما علمه ابوه ذلك ، لا بد ان يكون قد القاها ، من هناك ، على رؤوس الصهاينة العشرة المصطفين على بعد عشرين مترا ليعدموا اباه ، وهو يصيح : بسرك يا عمتي الشجرة ، اقتليهم جميعا يا برتقالة. عند ذلك ينفجر سر البرتقال يا اولاد . تطير البرتقالة في الهواء ، وتنزل على صف الصهاينة ، فاذا بها تنفجر ، فتقتلهم جميعا .

***

تسألونني يا اولاد ، عن سر البرتقالة التي القى بها عمر عكاوي الصغير بالامس على الصهاينة وهم مصطفون ليعدموا اباه ، فاذا بها تقتلهم جميعا . تسألونني : سمعنا

الموت في الحياة

للشاعر

عبد الوهاب البياتي

الثمن ٢٥٠ ق.ل

صدر حديثا

دار الاداب ـ بيروت

ونحن هنا .. ومن بعيد .. اخبار ما جرى في تلك القرية من قرى بيسان . وانها كانت برتقالة . واهل القرية هناك يقسمون على المصاحف انها سقطت على رؤوس اليهود من احد اغصان شجرة عمر عكاوي الجد ، فقتلتهم عن بكرة ابيهم . فكيف انها قتلتهم وهي برتقالة !

تسألونني يا اولاد . وانا اقول لكم : لبرتقالنا سر ، ينفتح بعد جيلين من تأسيسه . من الجد الى الابن فالى الحفيد . فاذا ظلوا جميعا : من الذي غرس الشتل الى الذي حمى الشجرة الى الذي قطف الثمرة ، محبين لامنا فلسطين ، فكلما شموا من البرتقال رائحتها ، يشتاقون للموت كرامة لعينيها ، فان مكان السلة الذي نخفي فيه برتقالنا لا ينكشف للصهاينة . يتحول ذلك البرتقال ، بيد الاولاد الشجعان الذين تعلموا كيف يكشفون اسراره وينزعون ترسه ويلقون به على رؤوس الصهاينة . يتحول بيد هؤلاء الاولاد وهم يخرجونه من اعماق السلال : قنابل .

هذا هو سر برتقالنا . فاحفظوه . وقولوا لآبائكم يعلمونكم كيف تنزعون الترس باسنانكم وتلقون بالباقي على رؤوس الصهاينة ، لينفتح لكم السر كما انفتح لذلك الولد الشجاع عمر عكاوي . لان اشجار البرتقال في فلسطين ذات اسرار . فلا بد انها شربت جميعها من دماء الاجداد قبل عشرين سنة . ثم ظل آباؤكم يحمون لكم طهارتها طيلة هذه السنين ، منتظرين ان تأتوا انتم ، لتقطفوا في مواسم العودة ، ثمارها بأيديكم . واليوم اصبحت تلك الاشجار تثمر كل ليلة . تحبل وتلد كل ليلة وهي فرحانة . اذ ترى اولاد ما بعد الجيلين وقد تعلموا حركات سرها كله . وتعطيكم عماتكم الاشجار موسما كل نهار . وتظل تنتظر مع مشرق الشمس كل يوم ان يأتي اولاد فلسطين الشجعان ، ليرفعوا من اغصانها بيارق النصر ، وليقطفوا برتقالها كل فجر ، ليصبح في ايديهم وهم يخرجونه من اعماق السلال ، كلما واجهوا الصهاينة ، قنابل .

***

هكذا حكى المعلم المسن بالامس ، وشعره ابيض ، لتلاميذه الصغار في الصف ، في مدرسة باحدى مدن فلسطين المحتلة ، حكاية سر البرتقال . ذات صباح حزين والسماء غائمة . والدنيا تعيسة . فبعد ان ظلت تمطر ساعة من الزمن ، دق الجرس وخرج الاولاد الى الباحة . نظر الاستاذ المسن من نافذة الصف الى تلاميذه ، وهم يتعاركون حول برتقالة كانت في يد أحدهم ، فما ان ظفر بها اقواهم ساعدا ، حتى شمها ودناها من فمه ونزع ترسها باسنانه ثم القى بها وهو يصيح: بسر امنا فلسطين. اقتليهم جميعا يا برتقالة . بينما هتف بقية الاولاد وهم يركضون في الباحة بصوت واحد : اقتليهم جميعا يا برتقالة .

ابتسم الاستاذ المسن . وشعره ابيض . ونظر الى الله ، فرآه يجلو الفيم بيده الرحيمة من فوق وجه السماء . واذا بالشمس تشرق .. قليلا .. قليلا ..

فعند ذلك فكر : لا بد انها عند الظهيرة ، ستغمر بيسان بدفء الامل .

حلب

اديب نحوي

الوحدة العربية آتية !

للمؤرخ البريطاني الشهير
ارنولد توينبي

عرف المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي بتعاطفه مع العرب وتأييده لقضاياهم . وان مواقفه من اسرائيل وعدوانيتها وعنصريتها لا تزال في الاذهان .

وفي هذا الكتاب يتنبأ توينبي بان الوحدة العربية لن تستغرق من الزمن حتى تتحقق ما استغرقته الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية ، ولن تنحرف مثلهما ، بل ان سنة ١٩٧٤ هي الحد الاقصى (كما يقول توينبي) لاشراق نور هذه الوحدة العربية .

ويتحدث المؤرخ البريطاني عن العقبات التي تعترض الوحدة العربية والوحدة الافريقية ، ولكنه يؤكد ان هذه العقبات ، ومنها مصالح بعض الافراد والاسر المستفيدة من التجزئة ، ستزول تدريجيا ، وان الوحدة العربية قادمة قريبا ، وويل لمن تعميه مصلحته الموقتة من ابنائها عن الحق ، وويل اكثر لمن يقف في طريقها ، معاداة للخير ، من غير ابنائها ...

وفي هذا الكتاب الممتع تأملات تاريخية طافت بذهن توينبي اثناء رحلاته الثلاث الى بلدان افريقية ، شمالي وجنوبي الصحراء الكبرى ، وعرض دقيق لمشكلة السودان ونيجيريا ، وائتلاف الاسلام والمسيحية في الحبشة وتاريخ نهر النيل ، ووصف شيق لمنطقة « سد الجبل » في أعالي النيل وورشة « اسوان » و « الجزيرة » في السودان ، مع زيارة الى غزة ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين واشادة بالخدمات التي قدمتها مصر لتلك المنطقة . كل ذلك في اسلوب شيق ونفس انساني رفيع وروح دعم وتأييد للنضال العربي